الفصل الثانى

عبد الرحمن الكواكبي في عصره

١ ــ نسبه وآله

يرى المؤرخون[١] من آل الكواكبي أن نسب جدّهم لأبيهم يرقى إلى على ابن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ ويذكرون فى شجرة هذا النسب علَمين من أرْدَبيل[٢] ، هما صفىّ الدين الأردبيلى وصدر الدين الأردبيلى . ويقولون إنّ من أحفاد الشيخ صفى الدين الأردبيلى رجلاً يسمى (على سياه بوش) ، خرج إلى بلاد الروم ولما وصل إلى حلب بقى فيها ، وتزوج من حلبية ثم رجع إلى بلاده ، ومن ولده بيت الكواكبي . ومن أحفاد صفى الدين كذلك ظهر إسماعيل الصفوى الذى جلس فى تبريز على[٣] عرش السلطنة وأسّس أسرة الصفويين التى ظلت تحكم إيران قرابة مئة وأربعين عاماً . وقد اشتهرت الأسرة فيما نعلم بنشر العلم والأدب ، واهتمّت برعاية المؤرخين والفقهاء والعلماء .

وذكر هؤلاء المؤرخون من آل الكواكبي كذلك أن نسبهم من جهة الأم يتصل بمحمد الباقر بن على زين العابدين بن الإمام السبط الشهيد الحسين ، وأن فى هذا النسب بنى الزهراء ، وجدّهم الشريف أبا محمد إبراهيم المنتقل من

---

(١) ألف حسن الكواكبى كتاباً فى ترجمة الأسرة « النفائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح » ونقل عنه المؤرخون بعده (انظر « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » لراغب الطباخ ١١٠/٧) .

(٢) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان بينها وبين بحر الخزر مسيرة يومين أغار عليها التتر فردهم أهلها مرتين ولكنهم افتتحوها فى المرة الثالثة ، ويقال إن أول من أنشأها فيروز الملك وينسب إليها خلق كثير من أهل العلم فى كل فن .

(٣) « تاريخ الأدب الفارسى » تأليف رضا زاده شفق ، ترجمة محمد موسى هنداوى ، مصر ١٩٤٧ ، ص ٢٠١ .

obeikandl.com

حران إلى حلب ، وقد مدحه أبو العلاء المعرى فى تاريخه وقصائده .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر هؤلاء الأجداد من جهة الأب أو الأم ، وإعادة سردهم هنا ، ولكن نكتفى بأن نبرز ما كان لهم من رفعة النسب وسموّ الحسب فى التصاقهم بعلىّ بن أبى طالب وآل بيته ، وتشيّعهم فى إيران وتسنّمهم عرش الملك ، فهم فيما رأى مؤرخهم حسن الكواكبى (المتوفّى سنة ١٢٢٩ هـ) قد جمعوا المجد من أطرافه فى العلم والشهرة . وهم على ذلك نازحون طارئون قدموا حلب وسكنوها ، فكانوا أعلاماً فى الأدب والفقه والدّين ، لذلك كانت إليهم نقابة الأشراف فى حلب على توالى الأجيال .

ويبدو أن أول من اشتهر منهم بالكواكبى هو محمد أبو يحيى الكواكبى ابن صدر الدين الأردبيلى ، ونسبه كما رأينا إلى بيت الصفوىّ ، انتقل إلى حلب ولبث فيها . « وعرف بالكواكبى لاتصال أحد أسلافه بآ ل الكواكبى من جهة النساء المعروفين عندنا بعراقة النسب » كما يقول المؤرخ الأستاذ كامل الغزى فى مجلة الحديث .

وقال المؤرخون فيه إنه كان حنفيّاً ، يعرف من قبل بالبيرى نسبة إلى « البيرة» قرب حلب ، ثم عرف بالكواكبى لأنه كان مبدأ[1] أمره حدّاداً يعمل بالمسامير الكواكبية[2] ، ثم فتح الله عليه فسلك طريق الصوفية وحصلت له شهرة زائدة حتّى كانت الأمراء تأتى إلى بابه ، وربما رأوه فى خلال الذكر ، فلم يجسروا عليه ، ووقفوا وهو لا يهتزّ لهم حتى يتمّ ذكره ، وربما كان يسير فى طرقات حلب فيهتمّ الناس بتعظيمه وتقبيل يديه . وقد توفى الرجل سنة ٨٩٧ هـ . ودفن بجوار الجامع المعروف الآن بجامع الكواكبى بمحلة الجلّوم – وهى من أحياء حلب اليوم المشهورة – وجامعه يعرف بجامع أبى يحيى الكواكبى .

---

(١) ابن الحنبلى فى « در الحبب » ، مخطوطة باريس رقم ٢١٤٠ ، بالورقة ١٤٢ و – انظر أعلام النبلاء ٥/٣٣٦ .

(٢) فى المعاجم أن الكوكب هو المسمار أو بريق الحديد وتوقده جمعه الكواكب .

هذا هو جدّ هذه الأسرة الكواكبية المشهورة ، ما يزال قبره فى الجامع[١] ، وفوقه القبة ، وقد رقد فى صحن الجامع أحفاده من آل الكواكبى ، وكلهم أعلام صلحاء وعبّادٌ ورعون زهّاد ، سلكوا طريقه ، وترجمت لهم كتب التاريخ[٢] ، وذكرت ما كان لهم من شهرة فى الورع والزهد ، أقام أكثرهم الذكر فى زاوية جدّهم بالجامع فى الحىّ المذكور . وقرأ بعضهم الكتب المشهورة فى الحواشى والتعليقات . واشتهر منهم بالنظم والنثر والشعر والعفة والتقى ، وتولّى منهم القضاء والتدريس والفتيا فى حلب وإستانبول ، ونالوا الإجازات فى العلم ، فكلهم أهل فضل ورياسة ، ولهم طريقة معروفة أردبيلية[٣] .

وقد مدح بعضهم الشعراء فأفاضوا فى المديح ، حتى كان لذلك كتاب جمعه أحد أبنائهم فى صدر القرن الثالث عشر للهجرة وسماه : « النقائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح» .

وهكذا عمل آل الكواكبى خلال أربعة قرون فى ميادين العلم والفقه ، فسطّروا صفحات لامعة تشهد بفضلهم وتمجّد ذكرهم على الأيام ، حتى كان النصف الثانى من القرن الثالث عشر للهجرة حين ظهر أحمد بهائى الكواكبى الوالد الذى نترجم لابنه فى هذا الكتاب .

٢ ــ والده

ولد أبوه أحمد بهائى بن محمد بن مسعود الكواكبى سنة ١٢٤٥ هـ ، وتلقّى العلوم النقلية والعقلية على أشياخ عصره فى حلب الشهباء ، منهم الشيخ شريف الرزاز ، والشيخ عثمان الكردى ، والشيخ حسين البالى الغزّى . وكان يمضى

---

(١) قال أبو ذر فى «كنوز الذهب» : «إن هذا الجامع كان يعرف قديماً بمسجد ضبيان عمره سنة ٦٢٨ هـ» . وقد نقل ذلك عن ابن شداد الحلبى المتوفى ٦٧٤ هـ .

(٢) انظر تراجمهم فى «إعلام النبلاء» ٥/٣٦٥ ، ٦/١٩٦ ، ٢٢٦ ، ٣٧٣ .

(٣) «إعلام النبلاء» ٦/٤٦٦ .

obeikandi.com

معظم فراغه فى الزاوية الهلالية . فلما اشتدّ ساعده أقرأ فى المدرستين الكواكبية والشرفية وفى الجامع الأموى ؛ واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك ، واشتغل بأمانة الفتوى مدة ، وعين عضواً فى مجلس إدارة الولاية .

وقال الأستاذ الغزى فيه[١] : « وكان الشيخ أحمد فى الغاية القصوى من الذكاء ودماثة الأخلاق وكرم السجايا ورقة الطباع ، وهو معدود من أجلّ علماء حلب فى العلوم الآلية ، وأدقهم نظراً فى مسائل الفتوى وباقى العلوم الدينية » .

وقال فيه كذلك : « إنه كان لا يقصده أحدٌ بحاجة تُنال بجاه أو شفاعة إلا أجابه بقضائها بحيث لم يسمع منه ذو حاجة كلمة " لا " قط ؛ ثم يمشى بقضاء تلك الحاجة إلى أن يحصل المقصود ، وإلا اتضح لصاحبها العذر وانصرف عنه راضياً . وكان محبًّا للصدقات الخفية كريم الطبع ، متفضلاً على الإخوان والخلاّن ، مع أنه ربما مضى عليه الشهر وهو خالٍ من النقود ، وقد استنيب فى قضاء حلب مدّة بعد إلحاح الوالى عليه ، ففرح به الناس ، وحسم أكثر دعاويهم صلحاً برضا الطّرفين » .

وقد وصفه الأستاذ الطباخ حين ترجم له[٢] فقال : « وكان ربعة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، أسودَ العينين ، وخطّه الشيبُ فى أواخر عمره ، وكان رقيق الحاشية ، ظريف المحاضرة لا يملّ منه جليسه حسن الخلق جدًّا » . ثم قال : « وكان يعرف اللغة التركية إذ كان يندر من يعرفها بحلب خصوصاً من العلماء » . وقال المؤرخ إن أحمد الكواكبى كان وقفاً على الإصلاح بين الناس ، وكان متولياً على جامع جدّه أبى يحيى وخطيباً وإماماً فيه . وكانت وفاته عن ست وخمسين فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م . ودُفن فى جامع جدّه ، وخلّف ولدين أحدهما السيد عبد الرحمن الكواكبى ولد سنة ١٢٧١ هـ وهو

---

(١) مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٢٩ ، ٦/٤٠٥ .

(٢) « إعلام النبلاء » ٧/٤٠١ .

الذى وقفنا له هذا الكتاب ، وثانيهما السيد مسعود الكواكبي ولد سنة ١٢٨١ ، وكان من أعضاء مجلس النواب العثمانى ، وعضواً فى محكمة التمييز بدمشق ، وعضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق عُرف بالأدب والفقه ورقة الطبع ودقة الأحكام وخلّف أنجالاً ما يزالون شواهد على سموّ البيت الكواكبي من علم وأدب وشهرة[1] .

ذلك والده بسطنا الأمر فيه لنذهب مع الذين يؤمنون بما للبيئة من أثر فى تنشئة الطفل ، يرون فيها تُربة يصلح الولد بصلاحها ويفسد بفسادها ، ويرث من خصائصها ومزاياها ما يقيم أمره ويمكّن له فى الدنيا ، فهو فى رأيهم صورة مصغّرة ، بل إنه غصن من شجرة ، وثمرة منها ، يُعطى الفرع ما يُعطى الأصل. وقد رأينا أن الأب كان عالماً وخطيباً وإماماً ، وقف على اللغة التركية ، وقضى فى الناس بالعدل ، وأصلح بينهم فى سخاء ، فكان كريم اللسان عفّ اليد قوىّ الجنان ثاقب الذهن ، وسنرى أن ابنه شابه أباه فأخذ منه كثيراً .

وأمّا والدته فهى السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب ، وأبوها كان مفتى أنطاكية ، وأسرتها على نسب رفيع أشرنا إليه قبل قليل .

٣ – حياته

(١٢٧١ – ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ – ١٩٠٢ م)

من هذين الأبوين الكريمين ولد عبد الرحمن بحلب فى ٢٣ شوّال سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م كما ذكر ابنه الدكتور أسعد الكواكبي[2] – فيما بعد – فقد صحّح ما جاء فى الأوراق الرسمية التركية ، وقال : « إنّ والده قام بعملية تصحيح السنّ لدخول الانتخابات فى حلب ، فجعل ولادته آنذاك ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨ م ليصبح سنّه مطابقاً لما تتطلبه عملية الانتخاب ، ولكنّ الواقع أن سنّه

---

(١) انظر ترجمة الرجل فى « مجلة المجمع العلمى العربى » بدمشق ١٩٣٠ ، ١٠/٤٤ ، وكلمة المرحوم الرئيس كردعلى فى المذكرات ، وابنه الدكتور صلاح الدين الكواكبي رصيفنا فى المجمع العلمى بدمشق .

(٢) مجلة « الحديث » ، حلب ، سبتمبر ١٩٥٢ ، ص ٥٤٢ – ٥٥٤ .

كان أصغر بكثير » . ولكن هذه الأوراق الرسمية هى التى سارت بين الناس ، وأخذ بها صاحب «المنار» الأستاذ السيد رشيد رضا[1] فعربها حرفياً عن التركية ، وكانت على نسختين مصدقتين ؛ الأولى وقعها الوالى عثمان نورى باشا الأعرج والثانية الوزير رائف باشا والى حلب . وعن هذه الأوراق[2] نترجم للرجل ، فقد أوردت وظائفه جميعاً وحددت تواريخها على ضبط غير قليل ، فهى سجل لهذا الموظف ترى فى سطورها مرآة حياته الرسمية سنة بعد سنة .

ودرج الطفل يحبو حتى بلغ السادسة من عمره ، فتوفيت أمه سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩، وفقد بذلك ركناً ركيناً ، وحرم حناناً واسعاً لا يعوض ، فكأن الحياة ابتلته بآلامها منذ نعومة أظفاره ، فأرسله أبوه إلى خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب بأنطاكية ، وحضنته هذه الخالة وهى مشهورة بين أترابها ، تجيد القراءة والكتابة والخط فى ذلك الزمان الذى ندر أن تجد كثيراً من الفحول يقفون للمعرفة أو الثقافة ، وكانت على ذكاء واسع فلبث عندها ثلاث سنوات ، تعلم خلالها اللغة التركية ، وتابع دروسه فى القراءة والكتابة .

وعاد بعد ذلك إلى حلب فى كفالة والده فَعُنى به عناية بالغة ، وأرسله إلى مدرسة الشيخ طاهر الكلزى ، فى قاعة الصقال بحلب بجوار خان الوزير ، فتعلم العلوم العربية والتركية والفارسية .

ولكنه لم يلبث أن سافر ثانية إلى أنطاكية سنة ١٢٨١ / ١٨٦٤ وقد بلغ الحادية عشرة من عمره ، وأصبح يدرك الأشياء وصورها إدراكاً جميلاً ، فتأثر من غير شك بجمال هذه المدينة وفيها الشلالات والبساتين والحدائق الواسعة وأخصبها « الحربيات » وكانت مصطافاً للحلبيين ، ومرتعاً يسرحون فيه البصر ويرسلون فيه النفس ، ويجلون به جفاف حلب وعُريها وظمأها ؛ فاتسع خيال

---

(١) « المنار » ٥/٢٣٧ وما يليها ، السبت ٧ يونيو سنة ١٩٠٢ .

(٢) أصدرت مجلة « الحديث » بحلب عدداً خاصاً فى ترجمته ، خصه ابنه الدكتور أسعد الكواكبى ببحث مطول نثبت منه سطور حياته من غير تردد ، فأهل مكة أدرى بشعابها .

الطفل لهذه المشاهد وغمرت نفسه مشاعر الرضا ، وغزت قلبه ألواح الجمال والجلال ، فنشأ على أفق واسع ونظرة رحبة تنفرج لفكر دقيق نيّر فى المستقبل ، وتحمل الأفكار العميقة ، ملء صدر يتنفس فى يسر وغبطة كما يتنفس الأطفال فى سويسرة وغيرها من مسارح الجمال والفتنة .

وفى هذه المدينة داوم على مدرسة خصوصية من أساتيذها بعضُ أنسبائه لأمه العلامة عبد الرحمن العلبى ، عضو شورى الدولة،والسيد نجيب النقيب عمّ والدته ، وكلاهما مشهوران لعصرهما . وقد عين الخديو توفيق ثانيهما أستاذاً خاصًّا لابنه عباس حلمى ، فلم يجد فى مملكته مَنْ يتوّفر على التعليم مثله . فانظر أية رعاية ربانية كانت للطفل الناشىء فى تقلّبه بين أعطاف هذه الأيدى الرحيمة الكريمة العلمية : خالته ، ونسيبه ، وعمّ أمه .

ومكث الطفل سنة واحدة فى أنطاكية رجع بعدها إلى حلب وقد بلغ الثانية عشرة من عمره ، فأدخله والده فى المدرسة الكواكبية وكان الأب مديراً لها ومدرساً ــ فتعلم فيها مبادئ الدين والعربية . وكان من أساتيذه فيها الشيخ عبد القادر الحبال[1] ، والشيخ محمد على الكحيل[2] أمين الفتوى بحلب وغيرهما من فحول العلماء . وتلقى العلوم العصرية على يد الأستاذ خورشيد ، وهو من أدباء الأتراك المشهورين ، فأتقن التركية والفارسية تكلماً وكتابة .

ولا شك فى أن الفتى كان يعالج الكتابة والقراءة ، ويجنح إلى العلوم الرياضية والطبيعية ، ويكثر من المطالعة والمراجعة ، وكانت صحف إستانبول تصل إلى حلب وفيها خير المترجمات عن الغرب ، والمترجم له قوىّ فى التركية ، حتى قيل إنه أصبح موسوعةً فى معارفها وكان ضليعاً فيها . فراح يعبّ منها حتى قوى عوده واستقام لسانه ، واتسع أفقه حين بلغ سنّ الشباب وزحف نحو العشرين من سنيه ، يعيش فى وسط ثقافى رفيع ، من حوله أبوه وأهله وهم علماء

---

(١) انظر ترجمته الموجزة فى « إعلام النبلاء » للطباخ ٣٩٨/٧ .

(٢) انظر ترجمته كذلك فى المصدر المذكور ٤١١/٧ .

أدباء ، وصلحاء فقهاء . وعلى مقربة منه المدرسة الكواكبية وكانت مصنعاً لكثير من شيوخ العصر تعلموا فيها وأخذوا عن أساتيذها ، فسار على سنة من قبله وبلغ إلى ما بلغوا إليه من ثقافة ورفعة وقوة . فما كاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى أصبح محرراً غير رسمي لجريدة « فرات » وهي الجريدة الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة في اللغتين العربية والتركية . ولهذه الجريدة تاريخ حافل ، فقد أسسها أحمد جودت باشا المؤرخ التركي الشهير سنة ١٨٦٧ للميلاد ، حين كان والياً على حلب وجعلها بعنوان « غدير الفرات » وظلت تصدر سنتين بهذا العنوان ، ثم حذفت كلمة غدير وأصبحت فرات فحسب تيمّناً بفيض النهر الذي عاش الحلبيون قروناً ينتظرون قدومه إليهم[١] .

وظلت الجريدة أربعاً وأربعين سنة حتى سنة ١٩١١ تصدر في قوة وإبداع حرّر فيها عبد الرحمن الكواكبي ، وكامل الغزي ، ومحمد الحنيفي ، وهم أعلام حلب لعصرهم ، فهي من الصحف الفريدة ولا يجري في ميدانها إلا فارس الحلبة .

وبعد عام أصبح محرراً رسمياً لهذه الجريدة نفسها براتب شهري قدره (٨٠٠ قرش) ثم راح ينشئ جريدة يحرّرها سنة ١٨٧٨ سماها « الشهباء »[٢] بالاشتراك مع هاشم العطار ، وهي أول جريدة عربية صدرت في حلب . ويقول كامل الغزي : « إنّ هذه الصحيفة كانت أول معلن أذاع بين الناس فضل هذا العبقري ، وكشف لهم عما كان منطوياً عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والسياسة . ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة وأقبلوا عليها أيمّا إقبال ، غير أنهم لسوء الحظّ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل[٣] » .

---

(١) تحققت هذه الأمنية بورود أنابيب من هذا النهر تسقّ العطشى وتمح الجفاف ، منذ عدة أعوام فحسب .

(٢) حرر في هذه الجريدة الشاعر الأديب ميخائيل الصقال ، ويقول الطباخ إن الكواكبي أنشأها سنة ١٢٩٥/١٨٧٨ .

(٣) كامل الغزي ، مجلة «الحديث» ، حلب ١٩٢٩ ، ٤٠٩/٦ .

وكان كامل باشا القبرصى ، الصدر الأعظم المشهور ، والياً لحلب آنذاك يكره الصحافة والحرية معاً ، فعاجلها بالتعطيل ، ويرى الغزى أن منشأ ذلك تسرّع الشاب الكواكبي فى الإصلاح[١] ، ونقده الكثير الموجّه إلى أعمال الوالى وموظفى ولايته مشيراً من طرف خفىّ إلى استبداد السلطان عبد الحميد وأنانيته المفرطة فى تثبيت سلطانه ؛ فى حين كانت الصحف الأخرى التركية والعربية تكيل المديح للسلطان ، ويغالى محرروها فى الإغداق عليه بالألقاب والمدائح مما لم ينله قبله ملك أو سلطان . فهو عندهم شاهنشاه ملك الملوك ، وملجأ الخلافة وبانى الدنيا ، وظلّ الله فى الأرض ، والسلطان الأعظم ، والذات الأقدس ، وغيرها مما لا يطلق إلا على منشئ الكون وبارئ النسم .

وأغلقت الجريدة بعد صدور خمسة عشر عدداً منها . وأنشأ جريدة « الاعتدال »[٢] سنة ١٨٧٩ وكانت بامتياز « سعيد بن على شريف » بالعربية والتركية ، فألغاها الوالى جميل باشا شيخ وزراء الدولة العثمانية فيما بعد كما ألغى سلفه كامل باشا الجريدة الأولى . وذلك لأن الشاب تطلّع إلى حرية قومه من خلال الأنهار التى كان يسوّدها فى الصحف ، ونادى بآراء كانت غريبة على مثله فأرادت السلطة العثمانية أن تقف هذا التيار ، وأن تحول دون جريانه ، فسدّت كلّ باب كان يفتحه ، وأوصدت كلّ سبيل كان يلجه ، لئلا يسير وراءه شبابٌ غيره ، فيصعب الرتق ، وتتفتح الأذهان لهذا اللون من التفكير . وقد سلخ الشاب خمس سنوات فى الصحافة الحلبيّة يكتب فى اللغتين حتى حسن إنشاؤه وسلم بيانه ، وقامت العبارة العربية فيه مقاماً تطلّع إليه كثير من الكتّاب باللغة والمستمسكين بالسياسة ، وهو أول من أنشأ جريدة فى الشهباء بعد الصحيفة الرسمية فكان أوّل صحافى حلبي يكتب فى هذه الأبواب .

ولما بلغ الشاب الخامسة والعشرين من عمره ، عين عضواً فخريّاً (بغير راتب)

---

(١) ويشاركه الطباخ فى رأيه .

(٢) الفيكونت فيليب دى طرازى ، « تاريخ الصحافة العربية » ، ٢٠١/٢ .

فى لجنتى المعارف والمالية فى ٩ آذار ١٨٧٩ ثمّ عين بعد عام واحد عضواً فخرياً كذلك فى الأشغال العامة ثمّ محرراً للمقاولات ، وعين بعدها مأموراً للإجراء (رئيساً لقلم المحضرين) فى ولاية حلب ، ثمّ عضواً فخرياً كذلك فى لجنة امتحان المحامين .

وبلغ التاسعة والعشرين من عمره ، فجعلته الحكومة مديراً فخرياً لمطبعة الولاية الرسمية فى سنة ١٨٨١ (٢١ ربيع الأول ١٣٩٧ ﻫ) ثمّ رئيساً فخرياً للجنة الأشغال العامة ، ثمّ عضواً فى محكمة التجارة بولاية حلب بأمر من وزارة العدلية ، ثمّ عاد مأموراً للإجراء فى حلب ١٨٨٦ (١٢٠٤ ﻫ) .

وهذه المرات التى شغلها الشاب عجمت عوده ، ووقفته على أعمال الدولة فارتقى من عضو إلى رئيس فى كثير منها ، وتسلّم المناصب الدقيقة — كما نقول اليوم — ولا شك فى أنه كان فيها موضع الثقة والإعجاب لعلو ثقافته ، وسموّ نفسه ، وسعة مداركه وحبّه لبنى قومه ، وسعيه فى الإصلاح ، واعتقاده بأن الموظف ملك الدولة والأمة ، وهو أجيرٌ لها ، يعمل لخيرها ورفعتها وسعادتها فى وطنية صادقة وإخلاص خالص .

على أن هذا الثبات فى مبدئه ، وهذه الشجاعة فى ثورته ، نبّها أنظار السلطة إلى خطره ، فوقف له والى حلب جميل باشا بالمرصاد ، يراقب حركاته وخاصة حين علم أن جميع ما تسطّره صحف الآستانة وبيروت من مقالات الطعن والتنديد به مستمدٌ من قلم السيد عبد الرحمن الكواكبى ، فلم يتحمل الكواكبى هذه المراقبة ، وأبت نفسه أن يصلح شأنه مع الوالى ، فاستقال آخر سنة ١٨٨٦ من وظيفته (مأمور الإجراء) ، وانفصل عن محكمة التجارة ، وعمد إلى فتح مكتب للمحاماة خاصّ به ، يُفتى فيه أصحاب الدعاوى ويسطّر اللوائح الاعتراضية ، ويحرّر معروضات المتظلمين من الحكّام ، مما يقدّمه عادة أبناء الشعب إلى المراجع العليا ، ويفيد المراجعين من المحامين ويرشدهم فيما يشكل عليهم من أحكام الأنظمة والقوانين .

وهذا المكتب جاء ضِغْثاً على إبّالة[1] ، وأزعج الوالى كذلك ، لأنه أصبح نلوة يأوى إليها الأعداء والمتظلمون فيدلهم الكواكبى على الطرق التى يتوصّلون بها إلى قهر الوالى والتخلص من ظلمه ويشجعهم على رفع ظلاماتهم ، ويتولّى لهم بنفسه تحرير الكتب والشكاوى المرسلة مع البريد أو البرق .

واتّسع بذلك الخرق ووقع الوالى فى شرّ أعماله وجاءه من هذا المكتب ما لم يكن بحسبانه . وفى تلك الأثناء وقع بين جميل باشا وبين المستر هندرسون قنصل إنكلترة فى حلب نزاع عنيف على مسائل سياسية — كما يقول الغزى — وراح كلٌّ منهما يستعدى مرجعه على خصمه فتمّ الاتفاق بين « الباب العالى » وسفارة إنكلترة فى أن تنتدب السفارة أحد رجالها فى السفر إلى حلب للتحقيق فى الموضوع ، فحضر المندوب وباشر بحوثه سرّاً واستعان على استجلاء الحقيقة بالكواكبى[2] ، يجتمع به خفية ويُطلعه على الموضوع فى حقيقته حتى عاد المندوب باقتراح لعزل القنصل عن حلب .

وهنا كان الكواكبى نبيلاً صادقاً فى عداوته حين وقف إلى جانب الوالى ونصره على القنصل بالرغم من البغض الذى يكنّه للوالى . وكان الجواسيس وعيون الوالى يبلّغون رئيسهم خلاف الواقع ويوغرون صدره على الكواكبى ، حتى اشتد حنقه عليه وفكّر فى تدبير وسيلة لإهلاكه . فلمّا أحسّ بأنّ الكواكبى يقصد السفر إلى أنطاكية ومنها إلى إستانبول منعه من السّفر ، ووضع الجواسيس على مكتبه يرقبون الداخل إليه والخارج منه ، ويتعقّبونه إذا خرج لا يكادون ينفكون عنه أينما حلّ وحيثما صار .

ولكنّ جماعة من أعيان حلب ووجهائها ممّن نكبهم الوالى لم ينقطعوا عنه ، وإنما كانوا يزورونه سرّاً ، يشكون له حالتهم وخاصة آل كتخدا ، فقد كان

---

(١) الضغث : قبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحشيش والحطب وهو مثل يضرب لاختلاط الأمر وازدياده سوءاً .

(٢) الغزى ، مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦/٤١١ .

الوالى يضايقهم ويعرقل أعمالهم ويسلّط عليهم مزارعيهم فى ضياعهم، ذلك لأنهم أبَوا أن يدفعوا له شيئاً من تركة زعيمهم مصطفى آغا كتخدا ، وهذا الشيء هو خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً فحسب ، طلبها باسم إعانة ، فامتنعوا عن الرشوة ، ولما أيقن أنهم مصرّون على الامتناع شرع فى إهانتهم وإثارة المزارعين عليهم ، وحبس أحدَ عظمائهم ، فأعانهم الكواكبى فى رفع ظلامتهم إلى الباب العالى ومقام السلطنة ، فورد الأمر بإطلاق سراح كبيرهم ، واشتدّ ساعدهم بعد هذا النصر ، وانضمّ إليهم جماعة من أعيان حلب وفيهم نافع الجابرى، الذى لُقِّب بشيخ المبعوثان واشتهر بمجاهرته العداء للسلطان ، حين استكثر رزق السلطان من بيت المال . وكذلك نصرى الأنطاكى الحلبى وهو يعدّ مع نافع الجابرى من أكبر الدهاة فى حلب[1].

وكان هؤلاء جميعاً يوالون شكاواهم من الوالى إلى المقامات العليا فى السلطة العثمانية على كتب ورسائل بالتركية يحرّرها السيد الكواكبى بلهجة بارعة مثيرة يهتزّ لها عظماء الدولة وأكابر رجالها، وتتأثر منها عظمة ذلك السلطان القاهر الذى كان لا يهاب الملوك ولا يحسب حساباً لأحد .

وكان الوالى محبوباً عند السلطان عبد الحميد ، يحتلّ عنده مكانة لا يدانيه فيها أحد ، لما يقدّم من هدايا وافرة ، وتحف ثمينة كان يفصدها من دم الشعب، فيغمره السلطان بالرتب العالية والأوسمة السامية . ولكن السلطان مع هذا استمع إلى شكاوى الحلبيين بفضل ذكاء الكواكبى وكتاباته ونظر فى ظلامتهم مكرهاً ، فأرسل حكماً ينظر فى أحوالهم ويقف على حقيقة الوضع .

وفى سنة ١٨٨٥ (٢٣ ذى الحجة ١٣٠٣ ﻫ) وصل هذا الحكم إلى حلب وهو « صاحب بك »رئيس دائرة المحاكمات فى شورى الدولة وقد أصبح بعد ذلك شيخ الإسلام ، ومعه لجنة من المحققين فأقاموا فى حلب ما ينيف على الشهرين ينظرون فى الشكاوى المقدمة من خصوم الوالى وكلها محرّرة بقلم الكواكبى .

---

(١) الغزى : « الحديث » ١٩٢٩ ، ٤١٣/٦ .

وصادف خلال ذلك أن اعتدى محامٍ أرمني « زيرون جقماقجيان» على الوالي في ساحة باب الفرج ، (يوم ٢٦ صفر ١٣٠٤ / ١٨٨٦) وأطلق عليه عياراً من مسدسه ، ولكنه أخطأه فقبض عليه . وأُرسل إلى السجن وحُكم عليه بالحبس خمس عشرة سنة . فاستغلّ الوالي هذه الحادثة ، وأمر بالقبض على الكواكبي والوجهاء الذين ذكرنا ، واتّهمهم بأنهم دبّروا لاغتياله وقتله ، وقبض عليهم في منازلهم ليلاً . وأودعهم السجن ، وضيّق عليهم الخناق ، وأبقاهم فيه بضعة عشر يوماً ، وقرر إبعادهم ، منتظراً سفر الحكم ولجنته .

ولكن الحكم « صاحب بك » علم بذلك فأبرق إلى السلطان في الأمر يشير إلى غليان المدينة والشعب ، وتفاقم الحال ، فصدر الأمر بتنحية الوالي « جميل باشا » وإرساله والياً إلى الحجاز وإخلاء سبيل السجناء وعيّن الوزير عثمان باشا الأعرج والياً لحلب — وكان مُقْعَداً يحمل على كرسي — فوصلها ١٨٨٦ م (١٩ ربيع الأول ١٣٠٤ هـ) .

ويختلف الغزي في تأريخ هذه الفترة من حياة الكواكبي [١] عما جاء في الأوراق الرسمية مما ترجمته « المنار » . فهو يرى أنّ الوالي عثمان باشا عيّن للكواكبي رئيساً للبلدية ثمّ عزله بعد أسبوع . والأوراق الرسمية ترى أن الوالي كاد للكواكبي كذلك ودسّ عليه وأحاله إلى المحاكمة وسجنه ثانية ثمّ برأته المحكمة [٢] .

وتقول هذه الأوراق إنّه في سنة ١٨٩٢ م (٢٣ رجب ١٣١٠ هـ) عيّن الكواكبي رئيساً للبلدية في حلب ، وقد بلغ الأربعين من العمر . فتفتقت عبقريته في الإصلاح وجهوده في الإنشاء والتعمير وقام للعمل كأحسن من يتسلّم هذا المنصب ، فرسم خطة واسعة جبارة تُعيي كُلّ من جاء بعده في اللحاق به ، ذلك أنه فكر في كلّ شيء ونهض لكل خير .

---

(١) الغزي ، « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦/ ٤١٨ .

(٢) يرى الغزي أن الوالي الذي اتّهمه بإحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين هو عارف باشا ، فقد قبض عليه وحاكمه وحكم عليه بالإعدام ثم سيق إلى بيروت بناء على طلبه فبرئ .

ومن أعماله أنه جعل سلاسل على الطرق تمنع الجمال التى كانت تسدّ الطرقات من دخول المدينة ، وخاصة السوق الكبيرة فيها ، وبه زهاء أربعة آلاف دكان ، فكانت الجمال تمشى فيه مُوقَرة[1] بالبضائع التجارية لتفرغ حمولتها فى الخانات والقياسر الداخلة فى السوق تزاحم المارة الذين تغصّ بهم السوق وربما داست بعضهم فقتلته . فوضع الحواجز على المداخل ، واختار أماكن خاصة خارج البلد تأوى إليها ، وهنا يقول الغزى إنّ التجار الحلبيين هاجوا وماجوا وقامت قيامتهم لأنهم كانوا يضطرون إلى دفع الأجور ثانية إلى محالهم ، وطلبوا عزل الكواكبي .

ومهما يكن من أمر فإن المصادر بين أيدينا تشير إلى مشاريع الرجل الكثيرة وتعدّدها ، ومنها أنه فكر فى إنشاء مرفأ للسويدية وجرّ خطٌ حديدى منها إلى حلب . وسعى فى جلب نهر الساجور قرب مدينة عينتاب إلى مدينة الشهباء . كما طلب امتيازاً بنقل عين البليعة من أرمناز إلى إدلب ، فقد كانت هذه العين تصنع المستنقعات ، وتولّد البعوض ، وتعين على الأمراض والأوبئة .

ونهض الكواكبي لإنارة المدن بالكهرباء فى حلب وفى أطرافها بيرجك ومرعش وأورفة – وكانت تابعة لها آنذاك – وذلك بواسطة شلاّل يحدثه من نهر العاصي فى محل « المضيق » بالقرب من دركوش التابعة لجسر الشغور . وقام بتجفيف أراضي العمق ، وتأميم الريجى واستخراج معدن النحاس من أورفة – وكانت تابعة لحلب كذلك – وسنّ مشاريع كثيرة لهذه المدن الملحقة بحلب تضيق السطور عن سردها واستيعابها .

ويذكر الغزى[2] أن عثمان باشا ولى حلب ثانية فى سنة ١٨٩٢ / ١٣١٠ فعين الكواكبي رئيساً لغرفة التجارة مع رئاسة المصرف الزراعى فأصلح شؤون الغرفة وأظهر كيانها ، وكانت من قبل اسماً بغير مسمًّى . ووضع لهذه الغرفة جدولاً إحصائيًّا كما نضع اليوم ، يشهد بأنّ الرجل كان من أحذق المختصين

---

(١) موقرة : مثقلة .

(٢) كامل الغزى مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦/٤٤٦ .

فى زمانه معرفة فى فنون الاقتصاد ومسائل العمران . وقد نشر الغزى فى كتابه[1] صورة عن هذا الجدول ، ليستشهد به كمثل رائع لعبقرية الكواكبى .

ويضيف الغزى أنّ السيد عبد الرحمن استقال من رئاسة غرفة التجارة وسافر إلى إستانبول قصد السياحة ، وانزوى فى أحد خاناتها ولم يشأ أن يتعرّف بأحد من عظمائها ، وكأنه لم يقصد من هذه السياحة إلا دراسة طبائع الاستبداد من مدرسته الكبرى قصر البلاط السلطانى ، المعروف باسم « يلدز » [2] ، فهو أعظم معهد تلقى فيه دروس هذا الفنّ العظيم . ولكنّ شهرة الرجل على انزوائه أشاعت خبر قدومه بواسطة المتجسسين إلى حضرة أبى الهدى الصيّادى[3] فبعث إليه جماعة من حاشيته ونقلوه من الخان إلى منزل أبى الهدى فأظهر الاغتباط بقدومه ، وأحلّه فى منزله ، ولعلّ هذا الالتفات كان من السلطان نفسه . وبعد أن أقام فى إستانبول بضعة أشهر قفل راجعاً إلى حلب[4] .

وعاد الرجل فالتزم من إدارة الريجى (شركة انحصار الدخان) جميع مداخيلها على أن يكون مفوضاً من قبلها فى كلّ ما يعمل . وعقد لذلك شركة يسهم فيها الناس ، فأقبلوا عليها بالاشتراك لفرط ثقة الشعب به ، وتسلّم الإدارة وطرد جميع من لا يعجبه فيها ، وتهافت الناس على شراء تبغه لجودته ورخصه ، وكان الأمل وطيداً بأن يربح أرباحاً طائلة ، ولكنّ الأقدار عاكسته فسببت قيام الأرمن فى بلدة « الزيتون » بمشاغبات ومذابح فكسدت بضاعة الدخان وخسر السيد عبد الرحمن بهذا الالتزام ، وشغب عليه العامة من أعدائه .

---

(١) « نهر الذهب فى تاريخ مملكة حلب » بالجزء الأول .

(٢) وردت « يلدز » هذه فى مطلع القصيدة التى نظمها أحمد شوقى بعد خلع السلطان عبد الحميد وقال فيه :

سل يلدزاً ذات القصور ... هل جاءها نبأ البدور

(٣) كتب الأستاذ أحمد أمين فى وصف الصيادى سطوراً مفيدة فى كتابه « زعماء الإصلاح » ص ٢٤٣ فارجع إليه .

(٤) الغزى ، مجلة « الحديث » ٤٤٦/٦ .

وفى سنة ١٨٩٤ (٢٩ ربيع الأول ١٣١٢هـ) جاء أمر من المشيخة الإسلامية إلى قاضى حلب بأن يستخدم السيد عبد الرحمن عنده بوظيفة رئيس كتاب للمحكمة الشرعية فى حلب ، فأنفق على المحكمة من ماله فى السجوف والأستار . ومنع اختلاط النساء بالرجال ، وجعل لكلّ مكاناً ينتظر فيه دوره ، ورتّب الأوقات ، ونظم الدفاتر والسجلات ، وبقى فى هذه الوظيفة – كما يقول الغزى – مدة تزيد على السنتين . ثمّ تألب عليه الحسّاد والأعداء والغوغاء ، فاتفق القاضى مع الوالى على تنحيته ، وعيّن مكانه السيد كامل الغزى ، برضى من الكواكبي نفسه[١] .

وعُيّن بعدها رئيساً للجنة البيع فى الأراضى الأميرية ثمّ رئيساً لغرفة التجارة بحلب . وقد أظهر خلال هذه المناصب والمراتب كفاية فى الإدارة وتعففاً عن المال ، وإخلاصاً للمصلحة ، وحبّاً للشعب ودفعاً للظلم وثورة على الاستبداد ، ونقضاً لأحكام الفوضى والرشوة ، فهزّ الحكام الذين كانوا يرون فى الشعب مطيّة لشهواتهم ، وموضعاً للاستغلال والرشوة وجلب المال ، فتألموا لوجوده وغضبوا لصراحته ومساعيه فى تبصير الشعب بآفاتهم ، فحرّضوا الأشرار عليه وأوعز بعضهم إلى جماعة من الأرمن أن يغتصبوا أراضى مزرعته ، واعتدوا عليه بإيعاز من الوالى وتدبير من أنصاره ، فضاقت به حلب وانقبضت نفسه ، ففكر فى وسيلة يتخلّص بها من هذا الجوّ الذى أصبح خانقاً لا يطاق .

ويقول الغزى إنّ شيخ الإسلام جمال الدين الكواكبي وجّه عليه نيابة قضاء راشيا[٢] ، ولكنه استقلّها وبقى فى حلب مدة ، ثم أظهر أنه يريد السفر إلى إستانبول ليستبدل بنيابة راشيا غيرها . وقبل سفره بيوم واحد زار صديقه كامل الغزى وودّعه وأخبره أنه عازم فى غده على السفر إلى إستانبول ولكن الغزى يقول

---

(١) الغزى « الحديث » ، ٦/٤٤٨ .

(٢) إن صاحب « المنار » يختلف عن الغزى فى كثير من مواقع هذه الترجمة كما رأينا ، فهو يأخذ عن الأوراق الرسمية ، والغزى معاصر له بحلب مرافق له فى حركاته وسكناته ، فنحن نوافق بين آرائهما جهد الطاقة . وهنا يقول رشيد رضا إن الكواكبى رغب فى أن يكون قاضياً للشرع فى راشيا ، وترى أن الغزى مخالف لذلك .

لنا : « وكنت عالماً بكتابه جمعية أم القرى ، وقد شعرتُ منه العزم على طبعه ، فوقع فى نفسى أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها . وحذرته من ذلك وقلت له إياك يا أخى والسفر إلى مصر فإنك متى دخلتها تعذّر عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تعدّ فى الحال من الطائفة المعروفة باسم « جون ترك » لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدّة العارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة ، فقال لم أعزم إلا على السفر إلى إستانبول للغرض الذى ذكرته لك . ثمّ ودعنى ومضى ، وأنا أسأل الله أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب فى أوائل سنة ١٣١٦ هـ . »

وهكذا كتم عبد الرحمن الكواكبى خبر سفره إلى مصر حتى على أعزّ إخوانه وأصدقائه ، وغادر سورية فى ١٨٩٩ (٢٢ رجب ١٣١٦ هـ) وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، وخلص نجياً من الظلم والاستبداد ، ولسنا ندرى هل رحل ابنه السيد كاظم[١] معه أم تأخر عنه ولحق به ، فالدكتور أسعد ابنه الذى كتب فيه وفى ترجمته لم يثر هذه الناحية ولم يعرها التفاتاً .

* * *

ويقول الغزى : « وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة « كتاب طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعنا عليه مراراً . ثمّ إنّه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما فى « المابين » السلطانى ضجة عظيمة ، وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفيّة وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة .

وبلغنا أنه بعد دخوله إلى مصر بأيام قلائل التفّ حول جماعة من أدباء

---

(١) ذلك أننا رأينا السيد كاظم مع أبيه بمصر من غير أن نعرف زمان قدومه إليه ، انظر ص ٣١ الآتية.

الأتراك يزعمون أنهم من طائفة "جون ترك" وما هم فى الحقيقة إلاّ جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها إلى المابين » .

ولقى عبد الرحمن الكواكبي فى مصر إخواناً وأصدقاء من السوريين هربوا قبله ، وكانوا يعملون لحرية العرب واستقلالهم ، فانضمّ إليهم ، وتألفت المودّة بينهم ، وقامت الصُحْبة واللقاء فى القاهرة كأحسن ما يصل بين الرجل وأخيه. وكانوا يجتمعون كلّ مساء فى مقهى « سبلندد بار » بالقاهرة . ومنهم الشيخ رشيد رضا [١] ، ومحمد كرد على ، وإبراهيم سليم النجار ، وطاهر الجزائرى ، وعبد القادر المغربى ، ورفيق العظم ، وعبد الحميد الزهراوى ، وبعض الصحفيين ... وكلهم مشهورون فى البلاغة والبيان والكتابة والفكر ، عملوا فى القطر المصرى ، فأرسلوا مقالاتهم فى الصحافة صرخات مدوّية فى سبيل كرامة الفرد وعزة العربى .

وسكن الكواكبي فى مصر ، بشارع الإمام الحسين ، بالقرب من الأزهر ، وراح يقرأ ويحرر وينشر حتى عُرف فى مصر واشتهر أمره ، وخاصة عندما نشر كتابه « أم القرى » وقد ألَّفه حين كان بحلب وبيّضه له ولده « أسعد » . ثم ازدادت شهرته وذاع صيته حين نشر فى جريدة «المؤيد» مقالات عن الاستبداد ، بغير توقيع ، فكان يبدو مفكراً عظيماً ومصلحاً كبيراً حتّى لقد اشتبه على المثقفين أمره فظنوا أنه يأخذ حرفيًّا من روسو ، فلما عرفوا أنه أبو عُذْر ذاك الكلام[٢] صاحوا : إنّ الكواكبي معجزة الكتّاب السياسيين لعصره بمصر ، وتسامعوا به فازدادوا له إجلالا وإكباراً .

وكان الخديوى عباس الثانى يتوق إلى الخلافة ، فأرسل فى طلب الكواكبي – كما قيل – ليقوم بالدعاية لقاء مرتب شهرى قدره خمسون جنيهاً مصريا[٣] ،

---

(١) يقول إبراهيم سليم النجار (الحديث ١٩٤٠/٥) : « اتصل المرحوم الكواكبى بالمرحوم على يوسف صاحب المؤيد على يد السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . فكنا نجتمع فى كل مساء فى حلقتنا المعروفة فى القاهرة » .

(٢) أبو عذره : صاحبه .

(٣) مجلة « الحديث » ، ١٢٠/١٩٥١ .

وليسعى لدى الشيوخ وعربان الإمارات بتوقيع عرائض يبايعون فيها الخديو عباساً بالخلافة . وقيل إنّ الكواكبي قبل ذلك فسافر فى أنحاء الشرق سنة ١٩٠١ ، وقد جاوز التاسعة والأربعين من العمر ، وأوغل فى أواسط جزيرة العرب على متون الجمال[١] ثلاثين يوماً ونيّفاً ، فقطع صحراء الدّهناء فى اليمن[٢] ، وتحوّل إلى الهند فشرق أفريقيا ، وطاف مصر والسودان وزنجبار والحبشة وسواحل أفريقية الشرقية والغربية ، ومواحل المحيط الهندى ، ووصل إلى كراتشى وبومباى على سفينة إيطالية حربية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسى فى مسقط ، فطافت به سواحل العرب . وعاد من هذه الرحلة بمعلومات وافرة[٣] عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية ، حتى إنه استحضر نماذج المعادن من تلك الأصقاع . ودام الأمر ستة أشهر ، فيما قالوا ، عاد بعدها الكواكبي إلى القاهرة ، فأقام هادئاً من غير عمل يسدّ به نفقته ، وكانت فى نفسه رحلة أخرى يتمّ بها معارفه ومشاهداته ، وهى الرحلة إلى الغرب ، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق ، ذلك لأنه انتقل إلى ربه بعد ثلاثة أشهر من عودته إلى مصر .

وهكذا لبث الرجل فى مصر قرابة عامين عُرف فيهما بسعة العلم وغزارة المادة ، فالتفّ حوله الأصدقاء والمخلصون ، وأكبروا فيه خدمة الوطن والعمل للأمة العربية ، ذلك لأنه قضى معظم أيامه فى الوظائف بحلب ، وقاسى ما قاسى من وشايات الأدنياء ودسائس المغرضين فعاش كما عاش المصلحون فى نضال وتضحيات ، لعله يحقق أمانيه الواسعة التى كانت قريبة من أمانىّ السيد جمال الدين الأفغانى ، ولكن المنية بالمرصاد للقلوب الكبيرة .

---

(١) « الهلال » ٢٩/٩٩٦ ، سنة ١٩٠٢ .

(٢) يقول الغزى إنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا فى حديدة باليمن يذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبى ، والقنصل حلبى هو السيد فرديناند بن ميخائيل صولا الحلبى كان تلميذاً للغزى .

(٣) كان فى الظن أن ينشر الكواكبى خبر رحلته فى مقال أو كتاب ، ولكن المنية عاجلته عن تسطير ذلك .

وفى مساء الخميس ١٤ يونية ١٩٠٢ (الموافق ٥ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ) جلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية إلى أصحابه وأصدقائه ، وفيهم السيد رشيد رضا ، والأستاذ محمد كرد على ، وإبراهيم سليم النجار (١) ، وشرب قهوة مُرّة وبعد نصف ساعة أحسّ بألم فى أمعائه فقام للحال ، وقصد مع ابنه السيد كاظم فى عربة «حنطور» إلى الدار وظلّ يقىء حتى قارب الليل منتصفه ، فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة ، ثمّ عاودته بعد ساعة ، فأحسّ ابنه بالخطر ، وهبّ يستدعى أقرب طبيب من المحلّة ، ولما عاد صحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة ، بعد أن طوى فيها خمسين عاماً كانت من أقصر الأعوام لهذا المجاهد العظيم والمفكر الكبير .

وسرى الخبر صباح الجمعة (٢) فى مدينة القاهرة ، فأمر الخديو عباس أن يدفن الكواكبى على نفقته الخاصة ، وأن يعجّل بدفنه ، وأرسل مندوباً عنه لتشييعه ، ودُفن فى قرافة باب الوزير فى سفح المقطم واحتفل له السيد على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » بثلاث ليال أحضر فيها القراء (٣) .

ومنذ خمس عشرة سنة نقلت مصلحة التنظيم المصرية رفاته باحتفال دينى إلى مقبرة خاصة ببعض مشاهير الرجال ، وتقع هذه المقبرة فى نهاية شارع العفيفى بمنطقة باب الوزير . وكُتب اسمه وتاريخُ وفاته وتاريخُ نقله على صفيحة من المرمر ، كما كتب أيضاً عليها بيتا شاعر النيل اللذان نوردهما بعد قليل (٤) .

---

(١) مجلة « الحديث » ١٩٤٠ ، ٦/١٤ .

(٢) يقول الغزى فى مجلة « الحديث » ٤٤٩/٦ : « وكأن وفاته كانت منتظرة لأنها لم يمض عليها يوم أو بعض يوم إلا وقد اتصلت بمسامع السلطان عبد الحميد ، وعلى الفور أصدر إرادته إلى السيد عبد القادر القبانى صاحب جريدة « ثمرات الفنون » التى كانت تصدر فى مدينة بيروت لأن يهبط سريعاً ويقصد محل إقامة السيد ، ويحرز جميع ما يجده من الأوراق ويرسلها إلى المابين » .

(٣) الغزى فى مجلة « الحديث » ٤٥٠/٦ .

(٤) الدكتور محمد أحمد خلف الله « الكواكبى حياته وآراؤه » ، مصر ١٩٥٦ ، ص ١٨ (عن مجلة الحديث ١٩٥٢ ، ٥٥٤/٢٦ بقلم ابنه الدكتور أسعد الكواكبى) .

obeikandi.com

وشاع فى كثير من الأوساط أن الرجل قضى مسموماً[1] ، كما شاع مثل ذلك على موت جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد نُقش على بيته بيتان من الشعر نظمهما حافظ إبراهيم فيه وهما :

هُنا رَجُلُ الدُّنْيا هُنا مَهْبِطُ التُّقى ... هُنا خَيْرُ مظلوم هُنا خَيْر كاتب
قفوا واقْرَءوا أمّ الكتاب وسلّموا ... عليه فهذا القبرُ قَبرُ الكواكبى

وقد رثاه الكتّاب والمفكرون والشعراء وبكوه بكاء مرّاً ، فصدرت صحف العصر تنعاه للعالم العربى والإسلامى ، كجريدة اللواء ، والمؤيد ، والقاهرة ، والرقيب ، والأهرام ، ومجلتى المقتطف والهلال . وكلها تضرب على وتر واحد فى بيان فضله — ووصف الخسارة فى فقده ، ورثاه مصطفى صادق الرافعى بقصيدة طويلة بكاه فيها ، ومنها قوله :

سلُوا حامليه هل رأوْا حول نَعْشه ... ملائكةً من حارب خلف حاربِ
وهل حملوا التّقوى إلى حفرة الثّرى ... وساروا بذاك الطود فوق المناكبِ
وهل أغمدوا فى قبره صارماً إذا ... تجرّد راع الشرق أهل المغاربِ
فكم هزّه الإسلام فى وجه حادث ... فهز صقيل الحدّ عضب المضاربِ
أرى حسرات فى النفوس تهافتتْ ... لها قطع الأحشاء من كُل جانبِ

وكتبت فيه المجلات والصحف فصولاً طوالاً رسمت حياته ونضاله ، وما كانت له من أفكار جريئة وصيحات مدوّية ، وعلم واسع ومعرفة عميقة فى الاجتماع والقانون ، وأشادت بقلمه النير وأسلوبه البديع ، فقد كان يحمل مشعل الإصلاح والحرية بيد لا تكلّ ولا تهن ، كما حمله زعماء الشرق العربى

---

(١) «تاريخ الشيخ محمد عبده» للأستاذ رشيد رضا ١/٩١ فى الحديث عن الأفغانى : «فشاع فى كثير من البلاد أنه مات مسموماً كما شاع مثل ذلك فى موت الأستاذ الإمام السيد عبد الرحمن الكواكبى» . ويقول محمد لطفى جمعه ، فى مجلة «الحديث» ١٩٣٧ ، ٦٥٢ : «إن الكواكبى ذهب ضحية ذبحة صدرية» . مكذباً هذه الإشاعة . وينقل الغزى عن ابن خالة له كان فى مصر أن الكواكبى دعى إلى الإسكندرية عند الخديو وعاد باليوم الثانى فأحس بالوجع ، «الحديث» ٦/٤٥٠ .

لعصره ، وكان سيفاً مشهوراً على أعداء الحرية والأمة العربية ، لم يغمد الموت منه إلا اللسان الذى يتكلم والجنان الذى ينبض أما آراؤه وأفكاره وعباراته فهى ما تزال فى سمع الأحرار والكتاب والمؤلفين وعشاق المبادئ السامية من كلّ قطر وصقع فى مشرق الأرض ومغربها . ولم تقف الأقلام منذ وفاته عن الحديث فيه بالعربية وغير العربية ، وما تزال العقول متعطشة إلى بحوث فيه ، وما انفكّ القراء ينتظرون له ترجمة تفى بحقه كما وفى بحقّ الفكر الحرّ والعقل النزيه . ولذلك كثرت فيه المقالات وتجمعت حتى بلغت صفحات يعيبها العد ، عددنا بعضها فى آخر هذه الصفحات إعلاناً بفضلها وإشارة إلى يدها ، معتذرين عن النسيان والسهو فهذا جهد المقل .

وكيف يستطيع قلم أن يحصى مآثره ، ويعدّد مناقبه ، ويلم بآرائه ويلحق بالآفاق التى حلّق فيها وهو يعلم أن صاحب الترجمة حلّق فى كلّ سماء ، وأوغل فى كلّ موضوع ، وسما على كلّ ذروة .

٤ ــ صورته الجسمانية والنفسية

وصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : « كان ربعة إلى الطول أقرب . قوىّ البنية ، صحيح الجسم ، عصبىّ المزاج بتأنّ ، أشهل العينين ، أزجّ الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متأنقاً فى لباسه ، يتكلم بجهر هادئ وسلاسة وابتسام يحسن السباحة والصيد والفروسية »[١]

وقال فيه الأستاذ كامل الغزى : « كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، واسع الجبين ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة لا غايرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، أزجّ

---

(١) « الحديث » ، ١٩٥٢ ، ٥٥٠/٢٦ .

الحاجبين ، صغير الأطراف ، معتدل الجسم بين السمن والهزال ، أسود الشعر ، قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى جهة مصر »[١] .

وعرفه إبرهيم سليم النجار فوصفه قائلا[٢] : « كان الكواكبي ربع القامة تميل إلى الطول قليلا ، أبيض الوجه بياضاً مشرباً بشيء قليل من الحمرة شأن سكان البلاد الباردة ، معتّم الرأس ، وقد أحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ، مدّ فيها الشيب خيوطه » .

وقال فيه الأستاذ محمد كرد علي[٣] : « رجل سيماء الفضل فى وجهه ، ودلائل سعة العلم فى حديثه ، لم تتح لى معاشرته إلا برهة وجيزة ، لكن الفضل لا يخفى » ، ثم قال : « كان كبيراً فى عقله ، كبيراً فى همّته ، كبيراً فى علمه ، وكان خلاّباً للألباب إذا ضمّك وإياه ناد لا تريد فراقه من بعد . . . وكانت عليه سيماء الكآبة مما منى به . مع تمسكه بالإسلام ، لم يكن متعصباً ، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحى واليهودى على السواء ، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كلّ رابطة »[٤] .

كان عبد الرحمن الكواكبي رفيقاً بالفقراء شفيقاً عليهم ، كثير الحدب على مصالحهم ، حتى سمّى فى حلب بأبى الضعفاء ، بل كانوا يدعونه أباهم . وكان يقف من أعدائه موقف المنصف العاقل ، فقد نُقل إلينا أن الشيخ أبا الهدى الصيّادى كان من أعدائه ،وقيل إن السبب فى ذلك إباء الكواكبي فى أن يصدّق على نسب الشيخ أبى الهدى ، وقد أصبح الشيخ نقيب أشراف حلب وكانت النقابة فى آل الكواكبي ، فلما سافر عبد الرحمن إلى مصر كان يُثنى على الصيادى ويجد فيه الصفات الحسنة كالمروءة والكرم والذكاء والثبات ،

---

(١) « الحديث » ١٩٢٩ ، ٤٠٦/٣ .

(٢) « الحديث » ١٩٥١ ، ١١٨ .

(٣) « المقتطف » ١٩٠٢ .

(٤) « الهلال » سنة ١٩٠٢ ، ٩٩٦/٢٩ .

وقلما كان يخوض فى انتقاده إلا مع الخواص الذين يعرفون الحقائق ، فكانت عداوتهما عداوة العقلاء ، على ما بينهما[١] .

وجاء فى «الرائد المصرى» أنه كان له فى بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث إلى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين[٢] .

وجاء فى «المقتطف»[٣] أنّ الكواكبي كان «يقول الحقّ ولو على نفسه ، ومن كان هذا حاله يقاسى الأمرّين ، ولا يهدأ له بال فكان ينصح بعضهم بالرجوع عن الجور والعسف ، فحنقوا عليه من جرّاء ذلك ، وتواطأ بعض العمّال مع الأعيان عليه ، وساموه من ضروب التنكيل ألواناً فصبر على ما أصابه ، مما يصيب فى العادة المنورين العقلاء فى البلاد الشرقية» .

ونُقل إلينا من صفاته أنه ما توانى فى أمر بدأ فيه ولا تضجر ولا تململ ، وكان رحب الصدر عاقلاً يخاطب الناس على قدر عقولهم ؛ «فهو سياسى محنك مع الساسة ، وعمرانى اجتماعى مع علماء العمران ، وعالم دينى مع علماء الدّين ، وتاجر مع التجار ، وزارع مع الزراع ، وصانع مع الصناع ، وعامل مع العمال ، وكبير مع الكبراء ، بحيث كان الناظر إليه لأول وهلة يقرأ فى جبهته أمارات العقل والخبرة الطويلة والعلم الوافر»[٤] . ونقلت «المقتطف» أنه كان واسع المادة ، بعيد غور العقل «يتكلم عن رويّة ولا ينطق عن هوى» .

وقال فيه الأستاذ أحمد أمين[٥] : «مؤدب اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، حتى لو ألقى عليه السلام لفكر فى الإجابة ، متزن فى حديثه ، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتمّ حديثه ،

---

(١) «المنار» ٥/٢٧٨ .

(٢) «الهلال» ٢٩/٩٩٦ ، سنة ١٩٠٢ .

(٣) «المقتطف» سنة ١٩٠٢ ، ٢٧/٦٢٣ .

(٤) المصدر السابق بالصفحة نفسها .

(٥) «فيض الخاطر» ٦/١٧٩ ، ثم «زعماء الإصلاح» ص ٢٥٣ .

ثم يصل ما انقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه ، نزيه النفس لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب ، شجاع فيما يقول ويفعل ، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد » .

وكان الكواكبي يصفه الأستاذ الغزى كريم اليد لا قيمة للمال عنده ، ولوعاً بالتفضل على أقرانه وخلانه ، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة ، والنميمة ، ويأبى الخضوع لأهل المجد الباطل . وكان لا يرى هدفاً يصوّب إليه سهام الطعن والتنديد غير أعاظم الرجال كالولاة والمتصرفين الذين ساءت سيرتهم وقبحت أعمالهم ، وهو يعتقد بأن الإصلاح يجب أن يبدأ بالرأس ، فإذا تم صلاحه تبعه الجسد فصلح كله[١] .

وكان يقول بالطفرة ، ويعتقد نجاحها إذا قرنت بالحزم والعزم والثبات ، وكان جريئاً فى اقتحام المخاطر والتعرض للمهالك حتى ليرمى بالتهوّر . وقد قال فيه أحد أصدقائه إنّ السيد عبد الرحمن مجموعة محاسن ولا عيب فيه سوى هاتين الخلتين : القول بالطفرة والجرأة المفرطة ، وهذا ما كدّر عليه موارد عيشه ، فقضى حياته يتجرّع صاب[٢] المصائب . فكان طموحاً للمعالى يثب إليها وثباً دون تدرج — كما يقول الغزى — وكان جدّيّاً يكره المزاح واللعب والتلهى ، لا يطرب بالتغنى ، ولا تميل نفسه إلى مجالس اللهو والطرب . وقد قال مرة لجلسائه : هل الطرب بالغناء إلا وهم وضعف مزاج وإضاعة وقت فيما لا يجدى[٣] .

ويقول فى طباعه السيد إبراهيم سليم النجار[٤] : « وكان فى نحو الخمسين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول شاعر حلبى من مواطنى الكواكبى هو الخورى نقولاوس الصائغ :

كثر العثار بعثرة الرؤساء ... وغوى الصغار بغرة الكبراء

لما رأيت الرأس وهو مهشم ... أيقنت منه تهشم الأعضاء

(٢) الصاب : المر .

(٣) « الحديث » ١٩٢٩ ، كامل الغزى ٦ / ٤٠٨ .

(٤) مجلة « الحديث » ١٩٥١ / ١١٨ .

من سنيه غير أنه كان كبير النشاط ، سريع الحركة شديد العزم ، يتكلّم بشيء من الشدة والحزم ، ولو لم يكن شيخاً ديّناً لكان قائد جيش فاتح. فلقد كان فى الحقيقة ثوريّاً بروحه وميوله ، وكثيراً ما كان يقول لى : لو ملكتُ جيشاً لقلبتُ حكومة عبد الحميد فى أربع وعشرين ساعة » .

٥ ـ تأثره وتأثيره

ولد عبد الرحمن الكواكبي فى بيت عريق بنسبه ، كما رأينا ، يعتز بأصالته وطيب أرومته ، ويفخر بتقاليده القديمة من عكوف على العلوم ومدارسة الفقه والدين ، وتعلق بالتصوف . ودرج منذ صباه فى أحضان خالة ذكية أشدّ الذكاء ، واسعة الفهم ، عميقة الإدراك ، تُجيد القراءة والكتابة باللغتين العربية والتركية ، فأخذ يسمع ما لم يسمع صبىّ مثله فى بلده إلا نادراً . ونشأ فى طفولته على أيدى أساتيذ يثقفونه بالعربية والتركية والفارسية وأمور الدّين ، فنهل من ينابيعهم ما وسع الطفل الناشىء أن ينهل . وسرّح نظره فى جمال الطبيعة بأنطاكية ومفاتنها فأحبت نفسه الخير والبركة والنعيم ، وألفت روحه الشفقة والحنان ، وأحبّ أخاه الإنسان ، وجهل البغض والحقد والضغينة ، لأن كلّ ما حوله كان يوحى إليه بحبّ العقل والفهم والجمال . فما كان ينتقل من بيت أبيه وفيه العلماء والشيوخ والصلحاء ورجال الدين المخلصون إلا إلى المدرسة الكواكبية وفيها الأوراق والكتب والدروس والمحاضرات ، فأحبّ المطالعة والعلم والبحث ، وساعده على ذلك ثقافة وجدّ فهو قد أخذ من اللغات الشرقية بنصيب وافر ، واستراح إلى أسرة معروفة فى الكرامة والمكانة .

فلما شبّ كانت الجرائد التركية تتجمع حوله تصل من الآستانة وفيها مقالات كبار المحررين والعلماء ، يترجمون عن اللغات الأوربية ، وينقلون

عن أوسع المصادر ، فأخذ يقرأ ويقرأ حتى عشق الكتابة ، ومال إلى التحرير لعله ينفّس عن صدر واسع امتلأ بأحدث الآراء وأنفس القصص والتواريخ والعلوم، وكان أكثر الشباب حوله في بلده يغطّون في جهل مطبق فرضه الفقر والحاجة وقلة المدارس وضآلة المدرسين ، فأحبّ أن ينقل إلى هؤلاء ما يرى وأن يترجم لهم ما قرأ، وأن يُعمل ذهنه الوقّاد المشتعل فيما قرأ وما سمع ، فرغب في أن يحرّر في الصحف .

وكان له أن يشترك في جريدة رسمية للحكومة ، ثمّ في جريدة غير رسمية ، يحرّر باللغتين في اندفاع وحميّة ، ولكنه في مقاطعة تابعة للدّولة العثمانية لا يجوز فيها ما يروج في العاصمة العلية ، لأن الحاكم يرضى لقومه ما لا يرضى للمحكوم في بلده ، فتلفتت الأنظار إليه وتنبّه الحكام العثمانيون إلى قلمه ومباحثه، فنالته أعين الحسّاد من أقرانه وضغينة الولاة في زمانه ، وسعوا جميعاً إلى وقف هذا السيل قبل أن يُغرق البلد بالإشعاع والنور والحرية ، وحالوا دونه بالتهديد والوعيد ، وهو وحده في ميدان واسع لا يجد فيه نصيراً إلا عصبة من أولى العزم والحزم كانت ضئيلة مبغّضة إلى ولاة الأمر .

فلما مال إلى الوظائف والمناصب يصلح فيها بيديه وعقله ما عجز أن يقوله بقلمه وقفوا له ثانية ، لأنه وحده كذلك في غمرة من المستخدمين المأجورين يجدون عند السلطان رزقهم ، ويرون فيهم سيّدهم ، تأثر بهذا الضيق وشعر بالجور والاستبداد لأنه يريد أن يقول فلا يباح له ، ويريد أن يعمل فلا يتاح له ، وآمن أن لا فلاح لهذه الأمة العربية إلا بالحرية فنشأت في نفسه كراهيـــة الاستبداد، ووَطّنَ النفس على أن يقول في هذا الاستبداد وأن يجد الطريق في الخلاص منه ، وساءه أن الشعب الإسلامي مكبّل بأغلال السادة في الآستانة ، فحزم أمره على التفكير في جمع شمله ليكون قوة هائلة ترهب المستبدّين وتنتج الخير لهذا الشعب المتفرق في أرجاء الأرض . وزاده السفر إيماناً بهذه القوة حين رأى الجهل في ممالك المسلمين ، وعرف أنهم يعيشون حياة الاستبداد والرقّ ،

وتفتحت عيناه على نور عظيم كان يشرق فى نفسه ، ذلك هو السعى إلى توحيد الأمة الإسلامية ونصرتها وتثقيفها وتعليمها ، فصاح صيحاته المدوية سرًّا فى بلده ، وقاوم المستبدين فى حلب ، فلما أتيح له أن يهرب صاح علناً وكتب فيما فكر فيه خلال ثلاثين عاماً ، وكان لصوته أثر كبير فى الإصلاح ، وأصبح فى الزعماء المفكرين الذين خطّوا طريق الفكر والحرية فى الشرق العربى .

وقد كان لكتاباته فى العرب ما كان لجمال الدين الأفغانى من إيضاح لموقف الأمة الإسلامية وبسط لحالها من الداء والأمراض ووصف لعلاج سريع للخلاص مما هى فيه . وأصبحت مقالاته فى كتابيه ذخراً للمتطلعين إلى الحرية فتأثر بها جيله وانتفع بها ، ومشى إلى طريق الكرامة والاستقلال ، فكانت المشعل الذى هدى والمعول الذى هدم واليد التى بنت والخطة التى نهجها المصلحون من بعده ، فأسقطت الجور وندّدت بالظلم وغدت بعد موته صفحات يأخذ بها المخلصون فى قيادة الأمم يقرءونها كما يقرءون كتب المصلحين المخلصين .

وأمّا أسلوبه فى الكتابة فقد سار فى نهج جديد تأثر به مَنْ بعده ، وتخلّص من الأساليب العقيمة التى كانت قبله ، وأصبح للصحافة على يديه ويدى زملائه المعاصرين دستوراً ومثالاً يحتذونه إلى اليوم . فهو أستاذ هذا الجيل فى الحرية والكتابة ، وستبقى بحوثه جديدة ما دام فى العالم مَنْ يؤمن بكرامة الإنسان وعزة الفرد ، وموت الاستبداد والطغيان .